دراسة لغوية نقدية مقارنة لمدحتين عند الأعشى الكبير والنابغة الشيباني

د. فاطمة محمد أمين العمري
الجامعة الأردنية

د. أفنان عبد الفتاح النجار
الجامعة الأردنية

د. بسمة أحمد صدقي الدجاني
الجامعة الأردنية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

يتناول هذا البحث قصيدة (ما بكاء الكبير بالأطلال) للأعشى الكبير، وقصيدة (بان الخليط) للنابغة الشيباني بالدراسة والتحليل والمقارنة في المضمون والموضوعات والأسلوب، وما استخدمه كلٌ مِنَ الشاعرين من معانٍ خاصة وعامة في سياق المدح، بالإضافة إلى محاولة الولوج إلى خصوصية كلٍ منهما في التعبير عن فكره باختيار اللفظ والتركيب من خلال دراسةٍ فنية تستأنس بشيءٍ من المنهج الأسلوبي في الدراسات الأدبية.

ويُقدم البحث بين يدي القصيدتين نبذة مختصرة عن الشاعرين ولمحة سريعة عن فن المديح في الشعر العربي معتمدة في ذلك على قدر يسير من المراجع العربية بالإضافة إلى دواوين الشعراء، ثم ينتهي منها إلى خاتمة تبين أهم ما توصلت إليه.

الأعشى

صناجة العرب [١] أعشى قيس، المعروف بالأعشى الأكبر أبو بصير، ميمون بن جندل بن عوف ابن سعد من قيس بن ثعلبة من بكر بن وائل من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان[٢] ، شاعرٌ جاهلي مات ولم يُسلم، وقد اختلف في نصرانيته[٣]. وهو شاعر غَزِل اشتهر بغزله الصريح وخمرياته ولهوه وطلبه للملذات التي أنفقت ماله وجعلته في حاجةٍ دائمة. فرحل

في طلب المال وطاف بلاد الشام والعراق واليمن قاصدًا الملوك والأشراف طامحًا في عطاياهم حتى اشتهر في المديح فصارت العرب تضيّفه وتهاديه ليمدحها ويُطيّر ذكرها.[٤]

والقصيدة التي تتصدى لها هذه الدراسة، إحدى مدائحه في الأسودِ بن يعفر أخي النعمان بن المنذر ملك الحيرة ومطلعها:

ما بُكاء الكبير بالأطلال وسؤالي فهل تردُّ سؤالي

وهي قصيدة مطولة من أجود شعره، وقع الاختيار عليها لتقاطعها مع قصيدة النابغة في مواطن كثيرةٍ علاوة على اشتراكها في فن المديح.

النابغة

نابغة بني شيبان، عبد الله بن المخارق بن سليم بن حصرة بن قيس بن سنان بن حماد بن جديلة بن أسد ابن ربيعة بن نزار.[٥] والنابغة شاعر أمويّ، عالج مختلف الموضوعات الشعرية في قصائده، وغزله عفيف بعيد عن التفحش، دفعته ظروف الحياة، والمذهب السياسي إلى المديح؛ فطاف بين الموضوعات الشعرية المتعددة سائرًا على نهج القدماء وصولاً إلى المديح. نجد في بعض شعره ميلاً إلى الزهد، مع عنايةً في اختيار الألفاظ وتجويد للشعر.[٦]

والقصيدة التي تتناولها الدراسة إحدى مدائحه في يزيد بن عبد الملك بن مروان، ومطلعها:

بانَ الخليط فشطوّا بالرعابيب وهنّ يؤبَّن بعد الحسن بالطيب

وهي قصيدة مطولة، وقع الاختيار عليها لما فيها مِن فنٍ جميلٍ، وتلاق مع مِدْحَة الأعشى في كثير من المواطن.

بين الشاعرين

لعله من اللطيف أن نتحدث عما بين الشاعرين من سماتٍ مشتركة، فكلاهما يحمل لقبًا بالتشارك مع آخرين فالأعشى واحدٌ من كثر، والنابغة كذلك.

كما اقترب كلاهما من النصرانية، فقد اختلف في نصرانية الأعشى، وكانت أم النابغة نصرانية.(٧)

كما وفد كلاهما على الملوك والأشراف مادحًا، فقد وفد الأعشى على كسرى والنعمان بن المنذر وأخيه الأسود، والسموأل، وقيس بن معد يكرب الكندي وغيرهم كثيرين،(٨) ووفد النابغة على خلفاء بني مروان فمدح عبد الملك وابنه يزيد.

غير أن الأعشى الجاهلي حظي بكثير من الذكر والاهتمام اللذين حُرِم منهما نابغة بني شيبان الأموي.

في المديح

رافقَ المديحُ القصيدةَ العربية، وسار معها في رحلتها الطويلة من جاهليتها إلى عصرنا الحاضر، فقد عبّر الشاعر العربي عن الموجودات الكونية، والمظاهر الطبيعية للحياة وناجى الآخر على المستوى الإنساني العام بكل ما اعترى العلاقة بينهما من مشاعر وحَدَّدها من ظروف. فأنشأ مُحِبًّا غَزِلاً وواضعًا متأملاً، وراثيًا حَزِنًا، وفاخرًا مَزهوًّا، وهاجيًا مؤلمًا ومادحًا مُبَجِلاً يرتفع بممدوحه إلى علياء المجد، وقمة الرقيّ الأخلاقي والحضاري، فالممدوح هو الشجاعُ الذي لا يهزم والكريم الذي لا يطاول والشريف الخالص النسب، وغيرها من الصفات التي توجد في الممدوحين حقيقة لكن الشاعر يتفنن في إظهارها حتى إذا مرت العصور حَمّلت المدحة معانٍ جديدة من مفرزات الدين الجديد والثقافة الحادثة والحضارة العمرانية والإنسانية فانمازت المدائح بمعانٍ خاصة لكنها لم تخرج عن إطارها العام واحتفظت بالمعاني والصور الإنسانية السامية التي لا تملك الحضارات – مهما تعددت – نَسْخَها.

قصيدة الأعشى

ما بكـاء الكبيـر بالأطـلال   وسؤالي فهَل تَرُدّ سُؤالـي
دِمنـةٌ قَفْرةٌ تَعَاوَرَهـا الصّيْـ   ـفُ بِريَحيْن من صَبًا وشَمَـالِ
لاتَ هَنّا ذِكْـرىَ جُبيرةَ أومَن   جاء مِنْها بطائفِ الأهْـوالِ
حَلّ أهْلي بطْنَ الغَميـسِ فبـادَو   لي، وحَلّت عُلْوِيّةً بالسِّخـالِ
تَرْتَعي السّفْحَ، فالكَثيـبَ، فذاقـا   رٍ، فروْضَ القطا فذاتَ الرئـالِ
رُبَّ خَرْقٍ من دونها يُخرِسُ السَّفْـ   ـرَ، وميلٍ يُفضي إلى أميـالِ
وَسِقاءٍ يُوكَى على تأقِ المـلْ   ءِ، وسَيْرٍ ومستقى أوشـالِ
وادّلاجٍ بعْدَ المَنـامِ، وتهجيـ   ـرٍ، وقُفٍّ وسَبْسَـبٍ ودِمـالِ
وقليبٍ أجْـنٍ كأنّ مِن الرّيـ   ـشِ بأرْجَائـه لُقُوطَ نصـال
فَلَئِنْ شطّ بي المَزارُ لقـد أغـ   ـدو قليلَ الهُمُـومِ ناعِـمَ بالِ
إذ هي الهَـمُّ والحديـثُ، وإذ تعْـ   ـصي إليّ الأميـرَ ذا الأقـوالِ
ظَبْيةٌ منْ ظِبـاءِ وَجْرَةَ أدْمَا   ءُ، تَسَفُّ الكبَـاثَ تحـتَ الهَـدالِ
حُرَّةٌ طفلـةُ الأنامـل، تَرْتَـ   ـبّ سُخامًـا، تكُفّهُ بِخِـلالِ
وكأن السُّمُـوطُ عكّفَهـا السّلْـ   ـكُ بعطْفَي حبْـداءَ أُمّ غَزَالِ
وكأنّ الخَمْرَ العَتيـقَ من الإسفنـ   ـطِ مَمْزوجـةً بماءٍ زُلالِ
باكَرَتها الأغرابُ في سِنَـةِ النّو   مِ فتجري خـلالَ شوْكِ السَّيالِ
فاذْهَبي ما إلَيكِ أدْرَكَني الحِلْـ   ـمُ، عَداني عن ذكْرِكُم أشغالي
وعَسيـرٍ أدماءَ حادرَةِ العَيْـ   ـنِ، حَتُوفٍ عَيْرانَـةٍ شِمـلالِ
مِن سَراةِ الهِجَان، صَلَّبَها العُـ   ـضّ وَدَعيُ الحِمى وطولُ الحيالِ

لم تَعَطّفْ على حُوارٍ، ولم يَقْـ ـطَعْ عُبَيَدٌ عُرُقَها من خُمالِ
قَدْ تَعلَّلتُها على نَكَظِ المَيْـ ـطِ، وقَدْ خَبّ لاقِعات الآلِ
فوقَ دَيْمُومَـةٍ تَغَوّلُ بالسَّفْـ ـرِ قفـارٍ إلا مِنَ الآجالِ
وإذا ما الضلالُ خِيفَ وكانَ الـ وِردُ خمْسًا يَرْجُونَهُ عَن لَيالِ
واستُحِث المغيّرونَ مِنَ القَوْ مِ وكانَ النّطافُ ما في العَزالي
مَرَحَت حُرّةٌ كقَنْطَرَةَ الرُّو سيّ تُفْرِي الهَجيرَ بالإرْقالِ
تَقْطَعُ الأقْفـرُ المُكوكِب وخدًا بنَـواجٍ سريعةِ الإيغـالِ
عنتريسٌ، تَعدو إذا مسّهـا السّـو طُ، كَعَدْوِ المُصَلصِلِ الجَوّالِ
لاحَهُ الصَّيْفُ والصِّيَالُ وإشفَـا قٌ على صَعَدةٍ كقَوْسِ الضّالِ
مُلمِـعٍ لاعَةِ الفـؤاد إلى جَحْـ شٍ، فلاهُ عنها فبئسَ الفَالي
ذو أذاةٍ على الخَليطِ، خبيـثُ الـ نّفْسِ، يرْمي مَرَاغَهْ بالنُّسَالِ
غادَرَ الجَحْشَ في الغُبـارِ، وعَـدّا ها حثيثًا لِصُـوّةِ الأدْحَـالِ
ذاك شَبَّهتُ ناقتي عن يميـن الـ سَرغْـنِ، بعْد الكلالِ والإعْمَالِ
وتراها تشكـو إليّ، وَقَـدْ آ لَتْ طَليحًا تُحذى صُدورَ النّعالِ
نَقَبَ الخُفِّ للسّرُى، فتَرى الأنـ سَاعَ مِن حِلّ ساعَةٍ وارْتحـالِ
أثَّرَتْ في خَبَاجِـنٍ كإرانِ الـ سَميتِ، عُولينَ فوْقَ عُوجٍ رِسالِ
لا تَشكّي إلَيَّ وانتجعي الأسـ وَدَ أهل الندى، وأهل الفِعـالِ
فَرعُ نبعٍ يَهْتَزّ في غُصُـن المَجْـ ـدِ غزيرُ الندى شديـدُ المِحَالِ
عِنْدَهُ الحَزْمُ والتّقى وأسـا الصَّرْ عِ، وحَمْلٌ لمُضْلـعِ الأثقـالِ
وَصِلاتُ الأرْحـام قد عَلِمَ النّـا سُ، وفَكُّ الأسرَى من الأغلال
وهَوانُ النّفسِ العزيـزةِ للذّكـ ـرِ، إذا ما التَقَتْ صُدورُ العَوالي

وعَطاءٌ إذا سألْتَ، إذا العِذْ ... رَةُ كانَت عَطيّةَ البُخّالِ
ووَفَاءٌ، إذا أجَرْتَ، فما غُرْ ... تْ حِبَالٌ وَصَلْتَها بِحِبالِ
أريحيٌّ، صَلْتٌ، يَظَلُّ له القَوْ ... مُ رُكودًا، قيامَهُم للهِلال
إنْ يُعاقبْ يَكُن غَرَامًا، وإن يُعْ ... طِ جزيلاً، فإنّهُ لا يُبالي
يَهَبُ الجِلّة الجراجِرَ، كالبسْ ... تَانِ تحْنُو لِدَرْدَقٍ أطفالِ
والبغايا يَرْكُضْنَ أكسيةَ الإضْ ... ريج والشَّرْعَبيَّ ذا الأذيالِ
وجيادًا كأنّها قُضُبُ الشّوْ ... حَطِ، تَعْدوُ بشِكَّةِ الأبْطالِ
والمكاكيكَ والصّحافِ من الفضّ ... ةِ والضّافرات تحتَ الرّجالِ
رُبَّ حَيٍّ أشقاهُمُ آخرَ الدّهْ ... رِ، وحَيٍّ سَقاهُمُ بِسِجالِ
ولَقَد شُبّتِ الحُروبُ فما غُمّ ... رْتَ فيها إذ قَلّصَتْ عَن حِيالِ
هؤلَى ثُمّ هؤلَى كُلاً أعْ ... طيتَ نِعالاً محذوّةً بمِثالِ
فأرى مَن عَصَاكَ أصْبَحَ مَخذُو ... لاً، وكَعبُ الذي يُطيعُكَ عَالي
أنتَ خيرٌ من ألفِ ألفٍ من القو ... مِ إذا ما كَبَتْ وُجوهُ الرّجالِ
وَلِمِثْلِ الّذي جَمَعْتَ مِنَ العُدّ ... ةِ، تأبَى حُكُومَةَ المُقْتالِ
جُندُكَ التّالِدُ العتيقُ من الـ ... سّادات أهْلِ القِبابِ والآكـالِ
غَيرُ مِيلٍ ولا عَواويرَ في الهيْ ... جَا ولا عُزّلٍ ولا أكْفالِ
وَدُرُوعٍ مِنْ نسجِ داوُدَ في الحر ... بِ وسوقٌ يُحمَلنَ فَوْقَ الجِمالِ
مُلبَسَاتٌ مِثْلَ الرّمادِ منَ الكُر ... سّرةِ مِنْ خشية النّدى والطِّلالِ
لمْ يُيَسَّرْنَ للصّديق، ولكِنْ ... لِقِتالِ العَدُوّ يوْمَ القِتالِ
لامرئٍ يجْعَلُ الأداةَ لرَيْبِ الـ ... دّهْرِ، لا مُسنَدٍ ولا زُمّالِ
كُلّ عامٍ يقودُ خَيْلاً إلى خَيْ ... لٍ، رِفَاقًا غداةَ غِبّ الصّقَالِ

هُوَ دانَ الرِّبابَ، إذ كَرِهوا الـ ـدّين دِراكًا بغَزْوَةٍ وَصِيالِ
ثُمَّ أسْقاهُمْ على نَفَدِ العيـ ـشِ فأروى ذَنوبَ رِفْدٍ مُحالِ
فَخْمةً يَلْجأُ المُضافُ إليْها، ورعَالاً مَوْصُولَةً برِعالِ
تُخرجُ الشيخَ من بنيهِ وتُلْوى بكبُونِ المِعزابةِ المغْرالِ
ثُمّ دانتْ بَعْدَ الرِّبابُ، وكانت كعذابٍ عُقوبَةُ الأقوالِ
عَن تَمَنٍّ وطُولِ حبسٍ وتجميـ ـع شَتَاتٍ، وَدِحْلَةٍ واحتِمالِ
مِنْ نَواصي دُودانَ إذ كَرِهُوا الـ بأسَ وذُبيانَ والهِجانِ الغوالي
ثُمّ وَصّلْتَ صرَّةً بربيعٍ، حينَ صَرّفتَ حالَةً عَنْ حَالِ
رُبّ رَفْدٍ هَرَقْتَهُ ذلك اليَوْ مَ وأسْرى مِن مَعشَرٍ أقتالِ
وشُيوخٍ حَرْبَى بشَطّي أريكٍ، ونساءٍ كأنّهنّ السَعالي
وشريكين في كثيرٍ من المـا لِ، وكانا مُحَالِفَيْ إقلالِ
قَسَما الطارِفَ التليدَ مِنَ الغُنْـ ـمِ، فآبا كلاهُمَا ذو مالِ
لَنْ تَزالوا كذلِكمُ، ثُمّ لازِلْـ ـتَ لهُمْ خَالِدًا خُلودُ الجبَالِ

مضمون قصيدة الأعشى :

تقع القصيدة في خمسة وسبعين بيتًا، وتقوم على أربعة موضوعات؛ إذ يبدأ الشاعر بالحديث عن الأطلال التي يرى الوقوف بها أمرًا غير مُجدٍ فيُبعد الذكرى عن نفسه، إذ ليس هذا موطنها فأهله يعيشون في مكان والمحبوبة في مكانٍ آخر، وبينهما مسافاتٌ طويلة وسفر شاق في الليل والنهار، وهو يُرّحبُ بهذا البعد إذ قَلّلَ هَمّه وأنعم باله فقد كانت المحبوبة همّه وحديثه. ومن هذا الهم ينتقل إلى موضوعه الثاني في الغزل ووصف المحبوبة التي يراها ظبية، صافية الأديم، بضة الأنامل مفتلة الشعر، ذات قلائد ريقها كالخمر وقد داعب النوم جفونها. وفي غمرةِ وصفه للمحبوبة ينتقل إلى موضوعه الثالث الذي يشغله ليتحدث عن ناقته الشديدة النشيطة التي يراها من أحسن النوق وأصلبها، تسير فوق الفلاة المقفرة ويزيد نشاطها في

الوقت الذي يستبدل فيه الناس أرحُلُهم المتعبة، إذ تعدو بخطى واسعة سريعة بعد ضربها بالسوط كعدو حمار الوحش الذي أهزله الصيف فصار ناحلاً وقد ظهر حَمْلُه. هذه الناقة تشكو إلى الأعشى الإجهاد والألم فيرفض سماع شكواها، ويصرفها لتشتكي إلى من هو أهل لذلك (الأسود بن يعفر) لينتقل إلى الغرض الرابع في قصيدته ويستقر فيه مادحًا مُكبرًا لممدوحه مادًّا في ذكر الصفات الكريمة فهذا الممدوح أهل الكرم والشجاعة عريقٌ في المجد يجمع بين الحزم والحذر ويصل الأرحام، ويفك الأسرى، نفسه العزيزة تهون عليه في سبيل المجد، وإذا سُئل أعطى بسخاءٍ من الإبل الضخمة، والإماء، والجياد السريعة، وكؤوس الخمر وآنية الفضة. وهذا الممدوح الكريم كم أسعد أقوامًا نالتهم نعمته وأشقى أقوامًا أصابتهم عقوبته إلى آخر الدهر. فقد شبّت حروب كثيرة لم يخسر فيها وأوقع بأعدائه. فَلِمَن عصاه الخسران ولمن أطاعه العز، إذ هو خير من ألف ألفٍ من القوم إذا اشتدّ الفزع، فقد اجتمع له عدة القتال والجند العريق الشجعان الذين لا يعتريهم الجبن، يلبسون الدروع المحكمة التي لا تصدأ، هذه الجند لا ينال أذاها الصديق، ويذوق وبالها العدوّ، تُتَّخذ لنوائب الدهر، وأميرها له كل عام غزوة، فحملَ قبيلة الرباب على طاعته وسقاهم كأس الموت. فجيشه كتيبة ضخمة تحمي المستجير، وتذهل الشيخ عن بنيه، وتُشرّدُ الإبل حتى لا تجد قبيلة الرباب بُدًّا من الطاعة بعد ما أصابها من عذاب الملوك وقد كانت قد أعدّت للقاء الأسود وجنوده، ولم تقف سطوة (الأسود) عند الرباب، بل جاوزها إلى غيرها ممن كرهوا القتال فبدّلهم (الأسود) حالاً من بعد حال فقتل منهم وأسر وشَرّدَ النساء وأخرج الشيوخ عما يملكون، فصار الرجال الفقراء من جند (الأسود) أغنياء بعد اقتسام الغنائم وسيبقى (الأسود) وجنده مظفرين ويبقى لهم (الأسود) خالدًا خلود الجبال.

قصيدة النابغة

بانَ الخليطُ فشطُّوا بالرَّعابيبِ ... وهنَّ يُؤبَنَّ بعدَ الحُسنِ بالطِّيبِ
فهيَّجوا الشوقَ إذ خَفَّت نعامُتُهم ... وأورثوا القلبَ صَدعًا غيرَ مشعوبِ
فهم حزائقُ ساروا نيةً قُذُفًا ... لم يُنظروك سِراعًا نحو "ملحوبِ"
تبُّوا القرنيةَ فانصاعَ الحُداةُ بهم ... وهُمْ ذوو زَجَلٍ عالٍ وتطريبِ

منهُ أراجيزُ تُزقي العيسَ إذ حُديت ... وفي المزامير أصوات الصلابيب
والعيسُ منه كأنَّ الذُّعر خالَطها ... أو نالها طائفٌ من ذي المخاليبِ
زانَ السدولَ عليها الرِّقْمُ إذ حُديتْ ... بكلِّ زوجٍ من الدّيباج محجوبِ
وفي الهوادج أبكارٌ مُنعّمةٌ ... مثلُ الدُّمَى هجِنَ شوقًا في المحاريب
كأنّها كلَّما ابتزَّتْ مباذِلها ... دُرُّ "بدارين" صافٍ غير مثقوبِ
لها سوالفُ غِزلانٍ وأوجُهُها ... مثلُ الدنانير حُرَّاتُ الأشانيبِ
كأنما الذهبُ العِقيانُ تَجعلُه ... بين الزُّمُردِ أوساطُ اليَعاسيبِ
على نحورٍ كغِرقي البيْضِ ناعمةٍ ... يَعْلُلْنَها بمجاميرٍ وتطييبِ
لها مَعاصِمُ غَصَّ اليارِقاتُ بها ... وفي الخلاخيلِ خَلْقٌ غيرُ معصوبِ
تَزْهو المحاسنُ منها وهي ناعمةٌ ... بكُلِّ جَثْلٍ غُذافِ اللونِ غربيبِ
تُبدي أكُفًّا تصيدُ العاشقين بها ... فها خضيبٌ ومنها غيرُ مخضوب
كأنَّ أفواهها الإغريضُ إذ بَسَمَت ... أو أقحُوانُ ربيعٍ ذي أهاضيبِ
في روضةٍ من رياضِ الحَزْنِ ناعمةٍ ... تجري الطِّلالُ عليها بعدَ شُؤبوبِ
كأنني شاربٌ من ذكرهم ثَملٌ ... لذٌ يُعَلُّ بِخَمْر الطاسِ والكُوبِ
أخو نَدامَى كرامٍ حَلَّ ضيفُهم؛ ... بِرَيَّةٍ باتَ يُسقى غيرَ مسلوبِ
تَدِبُّ فيها حُمَيَّاها وقد شربوا؛ ... منها قِطابٌ ومنها غيرُ مقطوبِ
شَرْبٌ يُغَنُّونَ والرَّيحانُ بينُهُم ... وكلُّ جَحْلٍ من الخُرطوم مَسحوبِ
تَرى القوائمَ منه وهي شائلةٌ ... من كلِّ ذي مُشعَرٍ بالقادِ قربوبِ
تسيلُ أرواحُها منها إذا مُلئتْ ... حتى تُفَرَّغَ في قوتّى الأكاويبِ
إنّ المنَاهِلَ جَمٌّ لنَ تُساعِفَنا ... منها العِذابُ ومنها غيرُ مشروبِ
تحنُو إلى كلِّ فنيانٍ أخي غَزَلٍ ... صوادفٌ عن ذوي الأسنانِ والشيبِ

يَبلى الشبابُ ويَنفي الشَّيبُ بهجَتـهُ والدهرُ ذو العوْصِ يأتي بالأعاجيبِ
ما يطلب الدهرُ تُدرِكُهُ مخالبُـه والدهرُ بالوِترِ ناجٍ غيرُ مطلوبِ
هلْ من أناسٍ أُولي مجدٍ ومأثُـرَةٍ إلاّ يَشُدُّ عليهم شَـدَّةَ الذّيـبِ
حتَّى يُصيبَ على عَمْدٍ خِيارَهُـمُ بالنافذاتِ من النَّبـل المصائيـبِ
إنّي وجدتُ سِهامَ الموتِ مَعْدِنُها بكُلِّ حتم من الآجالِ مكتـوبِ
مَنْ يَلْقَ بَلْوَى يَنُبْهُ بعدَها فَرَجٌ والناسُ بينَ ذوي روحٍ ومكروبِ
وبين داعٍ إلى رُشدٍ صحابَتَهُ، وبينَ غاوٍ، وذي مالٍ ومحروبِ
والعيشُ طُبْيانِ: طُبْيٌ ثَرَّ حالبُهُ، وطُبيٌ جَدّاءَ ذاوٍ غيرُ محلوبِ
وما طلابُكَ شيئًا لستَ نائلَه وسَبُّكَ الناسَ ظُلمًا غيرَ تعذيبِ
عاتِبْ أخاك ولا تُكثرْ مَلامَته وزُرْ صديقك رِسْلاً بعد تغبيبِ
وإن عُنيتَ بمعروفٍ فَقُلْ حَسَنا ولا تَهِنْ عن ذوي ضغْنٍ لتهييبِ
لا تَحمدَنْ أمرًا حتى تُجرِّبَهُ ولا تَذمَّنَّهُ من غيرِ تجريـبِ
إن الغلامَ مطيعٌ من يؤدِّبُه ولا يطيعك ذو شَيْبٍ لتأديـبِ
إن السلائق في الأخلاقِ غاليةٌ فالصَّقرُ لا يُقتنَى إلا بتدريبِ
وإن رحلتَ إلى مَلْكٍ لتمدحَهُ فارحل بشعرٍ نقيٍّ غيرِ مخشوبِ
وامدح "يزيد" ولا تظهر بمدحتِه وقُد أوائلَهـا قوداً بتشبيبِ
إنَّ البوارحَ لا يحبسنَ رحَلَتَهُ ولا يعوجُ بأصواتِ الغرابيـبِ
إنَّ الخليفةَ فرعٌ حين تنسُبُهُ من الأعاصي هِجانٌ خيرُ منسوبِ
ينَميه "حربٌ" و"مروانٌ" وأصلهما إلى جراثيـم مجدٍ غيرِ مأشوبِ
نمـاكَ أربعـةٌ كانوا أئمَّتَنـا فكان مُلكُكَ حقًّا ليس بالحُوبِ
أعطاك مُلْكا وتقوى أنتَ سائسُـهُ بَعدَ الفضائِلِ مَن أوحى إلى النُّوبِ

كالبدرِ أبلجُ عالي الهَمِّ مُختلقٌ   يُنْمِي إلى الأبطحيَّاتِ المصاعيبِ
بحرٌ نمتْه بُحورٌ غيرُ ساجيـةٍ   تلكَ المخاصيبُ أبناء المخاصيبِ
قومٌ "بمكَّةَ" في بطحائِهـا وُلدوا؛   أبناء "مكَّة" ليسوا بالأعاريـبِ
الأكثرون إذا ما سالَ موجُهُـمُ   بكلِّ أصيدَ سامي الطرف هُبْهوبِ
والضاربون من الأبطال هامَهُـم   ضَربًا طِلَخْفًا وَهَكًّا غير تذبيبِ
أنتَ ابنُ "عاتكه" الميمون طائِرُها   أمِّ الملوكِ بن الغُرِّ المنَاجيـبِ
إذا الملوكُ جَرَتْ يومًا لَمكرمَةٍ   جَرْيَ المحاضيرِ حُثَّت بالكلاليبِ
جَرَيتَ جَرْي عتيقٍ لم يكن وَكَلاً   بذَّ العناجيجَ سَبْقًا غيرَ مضروبِ
سهلُ المباءةِ يَعْفو الناسُ جَمَّتَهُ   يكسو الجِفانَ سَدَيفًا من ذرى النيبِ
حتى تصُدَّ العوافي بعدما سَبَقَت   عند المجاعةِ من لحم وترعيـبِ
وأنتَ تُحيي فئامًا بعدما همدت   إحياءَ غيثٍ بصوبٍ نفسَ حُلْبُوبِ
وأنتَ خيرُهُمُ يومًـا لمختبـطٍ   وأجودُ الناسِ جودًا عند تنجيـبِ
وحُجْفَلٍ لجِبٍ جَمٍّ صواهلُـهُ   عَوْذٍ يَخُدُّ مُتونَ السَّهـل واللُّوب
تَرى السماحِـجَ فيه وهي مُسنَفَةٌ   وكلَّ فَحلٍ طُوالِ الشخصِ يَعبوبِ
يَحْملنَ بَزَّةَ أبطـالٍ إذا ركبوا   بِكُلِّ مطَّرِدٍ صَدْقِ الأنابيـبِ
تردى بشُعْثٍ إذا ابتَلَّت رَحائِلها   بكلِّ فَجٍّ من الأعداء مرهـوبِ
إنْ سَكَّنوها وشدُّوا من أعنّتها   أخذن بالقومِ في حُضرٍ وتقريـبِ
وإنْ مَروها بقدٍّ أو بأسؤُفهـم   جاشت سراحيبُ تبري للسراحيب
يسمُو بها ويجيشٍ كالدَّبا أشِبٍ   بكلِّ هولٍ على ما كان مركوبِ
حتى يفُضَّ جموعًا بعد ما حُشِدَت   يُهالُ منها ويُغشى كُلُّ مرعوبِ
له كباشٌ بوقع السيف يغصبُها   وكبشُ صفِّك ماضٍ غير معضوبِ

ثُمَّتَ ناصتْ فُلولا من عَدُوِّكُم　　قد أحْجرتْ بين مقتولٍ ومحبوبِ
شُدَّت يداه جميعًا عندَ مَأخذِهِ　　شدًّا إلى جيده ربْطًا بتقصيبِ
بَلْهَ سُبيٌّ حَوَتْها الخيلُ تحسبُها　　زُهاءَ شاءٍ من "الأذري" مجلوب
كأنَّ رنّاتِ نِسوانِ السُّبيِّ، وقد　　الوى بها القومُ، أصواتُ اليعاقيب
غُنُمٌ يَظَلُّ إمامُ الناسِ يقسِمُها　　نبينَ موهوبةٍ منها وموهوبِ

مضمون قصيدة النابغة :

تقع القصيدة في ثلاثة وسبعين بيتًا، وتقوم على خمسة موضوعات، إذ يبدأ الشاعر قصيدته بوصف رحلة المحبوبة ووصف مشاعره وقتذاك، إذ هاج شوقه وأورثَ قلبه جرحًا لا يلتئم بعد رحيل المحبوبة في جمع أهلها إلى مكانٍ بعيد، وقد أخذ رعاة الإبل بالغناء بأصواتٍ عالية تطرب وتستخف الإبل بما يرافقها من صوت المزمار، فتسرع الإبل كأنها خائفة أو مهددة وقد جمَّلتها الأستار الحريرية الموشاة التي تغطي الهوادج. ومن هذه الهوادج ينتقل إلى موضوعه الثاني في وصف محبوبته والتغزل بها بضمير الجمع فهُنّ أبكارٌ مدللات في الهوادج كالتماثيل في دور العبادة وكالدُّرر، عُنُقها كَعُنق الغزال، صار أصفر اللون من رش العطر المجموع بالزعفران، ووجهها كالدنانير في لمعانها وكالعسل في نصاعته. ترتدي كثيرًا من الأساور والخلاخيل، ولكثرة جمالها يزهو بها الحسن وبشعرها الأسود، أكفها جميلة تستقطب العاشقين وأسنانها بيضاء كالأقحوان، والشاعر بهذا كالثمل لا مِن مشاهدة المحبوبة بل من تذكرها، وهو بهذا يتخلّص إلى موضوعه الثالث في الخمر، فَذِكر المحبوبة مسكِرٌ كالكرام الذين يسقون ضيفهم دون حساب خمرًا شديدة حادة ممزوجة وغير ممزوجة يشربون ويغنون، وبينهم الريحان والساقية تأتي كلّ شاب وتصدُّ عن كل ذي شيب. ومن الشباب والشيب يتخلص إلى موضوعه الرابع في الحكمة؛ إذ يذهب الشباب ويأتي الدهرُ الإنسانَ بالأعاجيب، وليس هناك من أصحاب المجد مَن لم يشتد الدهر عليهم كشدة الذئب على الفريسة ليصبهم بالمصائب، وسهام الموت نافذة، لكن الفرج بعد الضيق والناس يتقلبون في السراء والضراء، وعلى الإنسان ألا يطلب شيئًا ليس له، وعلى الإنسان أن يعاتب صديقه ويزوره غِبًّا ويقول الخير ولا يمنعه

الخوف من رد المخطئين، وعليه ألا يحمد الأشياء ولا يذمَّها إلا بعد تجربة، وطبائع الأشياء تغلبها وتغلب عليها. وعلى الإنسان إذا أراد أن يمدح ملكًا أن يمدحه بشعر نقي، وهو بهذا ينتقل إلى غرضه الأخير في مديح (يزيد بن عبد الملك) إذ لا يُغْفَل في مدحه ويزيد لا يثنيه عن عزيمته شيءٌ، كريم النسب ينتمي إلى الأعياص أولاد أمية من قريش وأصله (حرب ومروان) فنسبه صافٍ واضح لا يتداخل، وملكه حق ورثه عن أربعة من الأئمة أعطاه الله إياه بعد الفضائل والأخلاق الكريمة، فهو طلق الوجه عالي الهمة، كالبحر الذي لا يهدأ في حركته وعطائه، وهو كآبائه وأجداده كريمٌ من كرماء ولدوا بمكة وهي موطنهم، وهم شجعان في الحروب وكثيرون يتصيدون لكل ملك مزهوٍّ بنفسه، يضربون هامات الأبطال، و(يزيد) أكرم الملوك تطلبه الناس فيطعم ويذبح الإبل حتى تكتفي طالبات المعروف في المجاعة، فهذا الكرم منه الناس كالمطر للدرر في الحجر، وجيش (يزيد) عظيم ذو أصواتٍ مختلفة، وخيلُه كثيرة الصهيل طويلة سريعة مجهزة مستعدة للحرب، ترجم الأرض بحوافرها، سريعة إذا سُكِّنت وشُدّت بالألجمة، وسريعة إذا دُفعت للركض وضربت بالسياط والسيقان، يسمو بها (يزيد) وينتصر إذ فيها يفرق جموع الأعداء، وجيشه ماضٍ يأخذ بمقدم الرؤوس ويهزم الجيوش فتصير بين قتلى وهاربين وأسرى وسبايا من الغنائم التي يهبها للناس.

بين القصيدتين – المضمون

نظم الأعشى قصيدته في أربعة موضوعات في حين ضَمَّت قصيدة النابغة موضوعاتٍ خمسة، فالقصيدتان ليس فيهما وحدة موضوعية.

يبدأ الأعشى قصيدته رافضًا الوقوف على الأطلال التي لا تجيب، مُسَلِّمًا بابتعاد المحبوبة ورحيلها بل وراضيًا مرتاحًا لأنه تخلَّص من همومه برحيلها؛ إذ يبدو غير مكترثٍ بها وغير مشغول، وهذا قوله:

ما بكاءُ الكبير بالأطلالِ   وسؤالي فهل تَرُدُّ سؤالي

دمنةٌ قفرةٌ تعاورها الصيـ   ـفُ بريحين من صبا وشمال

فلئن شطّ بي المزار لقد أغـ   ـدو قليلَ الهموم ناعمَ بالِ

إذ هي الهمُّ والحديثِ وإذ تعـ ـصي إليّ الأميرَ ذا الأقوالِ
فاذهبي وإليك أدركني الحلـ ـم عداني عن ذكركم أشغالي

غير أن النابغة يركز على تفاصيل رحلة محبوبته التي يعاني لفراقها وما تركته في قلبه من جراحٍ لا تلتئم، وهو قوله:

بان الخليطُ فشطوا بالرعابيب وهنّ يؤبن بعد الحسن بالطيب
فهيجوا الشوقَ إذ خفَّت نعامتهم وأورثوا القلب صدعًا غير مشعوبِ
فَهُم حزائق ساروا نيّة قُذفًا لم ينظروك سراعًا نحو ملحوب

فالنابغة أكثر إقبالاً على المحبوبة وإعلاءً من شأنها وشغفًا بها، وهذا مناسب لطيفٌ في مقام المدح، بخلاف ما نراه عند الأعشى الذي كان عليه أن يكون أكثر اهتمامًا بامرأته وهو في مقام المدح.[٩]

أما وصف المحبوبة والتغزل بها فقد جاء صريحًا مباشرًا مخصوصًا عند الأعشى فهو لا يكتفي بذكر اسمها (حبيرةً) ومكانها بالتحديد، بل ويزيد فيذكر عصيانها لزوجها من أجله فيقول:

إذ هي الهمُّ والحديث وإذ تعـ ـصى إليّ الأمير ذا الأقوال
ظبية من ظباء وجرة أدمـا ءُ تَسفُّ الكباثَ تحت الهدال
حُرَّة طفلـة الأنامـل تَرتَـ ـبُ سُخامًا تكفُّه بخِلال
وكأن السموط عكفهـا السِّلـ ـكُ بعطفي جيداءَ أم غزال
وكأن الخمر العتيق من الاسفنـ ـطِ ممزوجة بمـاءٍ زُلال
باكرتها الأغرابُ في سُنَّة النو مِ فتجري خلالَ شوك السيال

في حين جاء غزل النابغة عفيفًا وغير مباشرٍ وعامًا، فهو يتحدث عَمَّن في الهوادج من الأبكار المنعمات بضمير الجمع الذي يستأنس به أحيانًا حتى يبدو غزله أشبه بالمرأة المثال، وهذا متمثل في قوله :

وفي الهـوادج أبكـارٌ مُنعّمـةٌ   مثلُ الدُّمَى هجِنَ شوقًا في المحاريب
كأنّها كلَّمـا ابتزَّتْ مباذلهـا   دُرُّ "بدارين" صافٍ غير مثقوبِ
لها سوالفُ غِزلانٍ وأوجُهُهـا   مثلُ الدنانير حُرَّاتُ الأشانيـبِ
كأنما الذهبُ العِقيـانُ تَجعلُه   بين الزُّمُّردِ أوسـاطُ اليعاسيبِ
على نحورٍ كغِرقي البيْضِ ناعمـةٍ   يَعْلُلْنَها بمجاميرٍ وتطييبِ
لها مَعاصِمُ غَصَّ اليارِقـاتُ بهـا   وفي الخلاخيلِ خَلْقٌ غيرُ معصوبِ
تَزْهو المحاسنُ منها وهي ناعمـةٌ   بكُلِّ حثْلٍ غُذافِ اللونِ غربيـبِ
صفر السوالف من نضخ العبير بها   تبدو لها غُرر دون الجلاليـب
تُبدي أكُفًّا تصيدُ العاشقيـن بها   منها خضيبٌ ومنها غيرُ مخضوب
كأنَّ أفواهها الإغريضُ إذ بَسَمَـت   أو أقحُوانُ ربيعٍ ذي أهاضيـبِ
في روضةٍ من رياضِ الحَزْنِ ناعمةٍ   تجري الطِّلالُ عليها بعدَ شُؤبوبِ

ولعل غزل النابغة أجلّ شأنًا في حضرةِ الملوك من غَزل الأعشى.

يتلاقى الأعشى والنابغة في كثير من الصفات ممدوحَيْهم فالأعشى يرى (الأسود بن يعفر) أهل الكرم والشجاعة، عريقًا في المجد، وغزيرًا في العطاء، وشديد النكال يجمع بين الحزم والحذر ويصل الأرحام، ويفكُ الأسرى، نفسه العزيزةُ تهونُ من أجل المجد والسمعة الحسنة، فهو يجير من يستجير به، وعقابه شديد غير أن خيره جزيل، فهو يعطي ويهب الإبل الضخمة والإماء والجياد والخمر وآنية الفضة في قوله:

لا تَشكّي إلَيَّ وانتجعي الأسـ   وَدَ أهل الندى، وأهل الفِعـالِ
فَرعُ نبعٍ يَهْتَزّ في غُصُن المَجْـ   ـدِ غزيرُ الندى شديـدُ المِحَالِ
عِنْدَهُ الحَزْمُ والتّقى وأسا الصَّرْ   ع، وحَمْلٌ لمُضلـعِ الأثقـالِ
وصلاتُ الأرْحـام قد عَلِمَ النّا   سُ، وفَكُّ الأسرَى من الأغـلال
وهَوانُ النّفسِ العزيـزةِ للذّكـ   ـرِ، إذا ما التَقَتْ صُدورُ العَوالي

وعَطاءٌ إذا سألْتَ، إذا العِذْ رَةُ كانَت عَطيّةَ البُخّالِ
ووَفَاءٌ، إذا أجَرْتَ، فما غُرّ تْ حِبَالٌ وَصَلْتَها بِحِبالِ
أريحيٌّ، صَلْتٌ، يَظَلُّ له القَوْ مُ رُكودًا، قيامَهُم للهِلال
إنْ يُعاقبْ تكُن غَرَامًا، وإن يُعـ طِ جزيلاً، فإنّهُ لا يُبالي
يَهَبُ الجلّة الجراجِرَ، كالبسْـ تَانِ تحْنُو لِدَرْدَقٍ أطفالِ
والبغايا يَرْكُضْنَ أكسيةَ الإضـ ـريج والشّرْعَبيَّ ذا الأذيالِ
وجيادًا كأنّها قُضُبُ الشّوْ حَطِ، تَعْدوُ بشِكَّةِ الأبْطالِ
والمكاكيكَ والصّحافِ من الفضّـ ـةِ والضّامزاتِ تحتَ الرّجالِ

والنابغة يرى (يزيد بن عبد الملك) كريمًا معطاء، تطلبه الناس، فيطعم ويذبح حتى يكفيهم في المجاعات، فهو أكرم الناس وأجودهم وأسرعهم لفعل الخير، طلق الوجه، عالي الهمّة، شجاع لا يثنيه عن عزمه شيء، كريم النسب، تقي يتحلى بالفضائل إذ يقول فيه:

إنَّ البوارحَ لا يحبسنَ رحَلَتَهُ ولا يعوجُ بأصواتِ الغرابيبِ
إنَّ الخليفةَ فرعٌ حين تنسُبُهُ من الأعاصي هِجانٌ خيرُ منسوبِ
كالبدرِ أبلجُ عالي الهَمِّ مُختلقٌ يُنْمِي إلى الأبطحيَّاتِ المصاعيبِ
إذا الملوك جرت يومًا لمكرمةٍ جريَ المحاضير حُثَّت بالكلاليبِ
جَرَيتَ جري عتيق لن يكن وكلا بذّ العناجيج سبقًا غير مضروب
سهل المباءة يعفو الناس جمَّته يكسو الجفان سديفًا من ذرى النيب
حتى تُصدَّ العوافي بعد ما سبقت عند المجاعة من لحمٍ وترعيبِ
وأنت تحيي فئامًا بعدما همدت إحياءَ غيث بصوبٍ نفسَ حلبوب
وأنت خيرهم يومًا لمختبط وأجود الناس جودًا عند تنجيبِ

كما تتقاطع عند الأعشى والنابغة صورة الممدوح في الحرب فهو عند الأعشى لا يخسر حربًا، ويوقع بأعدائه فهو خيرٌ من ألف ألف إذا اشتد الفزع، وقد اجتمعت له عدة القتال والجند العريق الذي يحمل القبائل على طاعته ويحمل إليهم الموت فيقتل ويأسر ويشرد ثم يوزع الغنائم في قوله:

ولَقَد شُبّتِ الحُروبُ فما غُمّ — رْتَ فيها إذ قَلّصَتْ عَن حِيالِ
أنت خيرٌ من ألف ألف من القو — مِ إذا ما كَبَتَ وجوه الرجال
جندك التالد العتيق من ال — سادات أهلِ القبابِ والآكال
هو دان الرباب إذ كرهوا ال — دينَ دراكًا بغزوةٍ وصيالِ
ربَّ رفدٍ هَرَقته ذلك اليو — مَ وأسرى من معشرٍ أقتال
قسما الطارف التليد من الغن — مِ فآبا كلاهما ذو مالِ

وجيش (يزيد) عند النابغة عظيم ذو أصواتٍ مختلفة وخيلُه كثيرةُ الصهيل سريعة الانتشار كالجراد، يسمو بها وينتصر، إذ يفرق بين أعدائه آخذًا بمقدم الرؤوس فتروح الأعداء بين قتلى وهاربين وأسرى وسبايا ثم يوزع الغنائم في قوله:

وحُجْفَلٍ لجِبٍ جَمٍّ صواهلُهُ — عوذ يخُذُّ متون السهل واللوب
ترى السماجيج فيه وهي مسنَفَةٌ — وكل فحل طوالِ الشخص يعبوب
تردى بشعثٍ إذا ابتلَّت رحائلها — بكلِّ فجٍّ من الأعداء مرهوب
يسمُو بها ويجيشٍ كالدَّبا أشِبٍ — بكلِّ هولٍ على ما كان مركوبِ

يزيدُ النابغة في مديحه (ليزيد) على ما مدح به الأعشى (الأسودَ) بتركيزه على كرم النسب وشرفه، فهو يُلحُّ على هذه القضية ويكررها، وهي متمثلةٌ في الأبيات الآتية:

إنّ الخليفة فرع حين تنسبُه — من الأعاصي هجانٌ خيرُ منسوبِ
ينميه حربٌ ومروان وأصلهما — إلى جراثيم مجدٍ غير مأشوبِ
نماك أربعةٌ كانوا أئمتنا — فكان ملكك حقًا ليس بالحوب

بحرٌ نمته بحورٌ غير ساجية تلك المخاصيبُ أبناء المخاصيب
قومٌ بمكة في بطحائها ولدوا أبناءُ مكة ليسوا بالأعاريب
أنت ابن عاتكة الميمون طائرها أم الملوك بني الغُرِّ المناحيبِ

ولعلّ الأعشى لم يركز على هذه المعاني لأنه ممدوحه (فارسي) وقضية النسب لا تشغل الفرس كما هي عند العرب.

كما تحدث النابغة عن حق ممدوحه في الخلافة في قوله:

نماك أربعة كانوا أئمتنا فكان ملكك حقًا ليس بالحُوبِ

وهذا أمرٌ فرضته طبيعة الحياة السياسية والصراع على الحكم في العصر الأموي. أضف إلى ذلك أن النابغة مدح يزيد بالصفات والفضائل والتقوى وهذا من معطيات الدين الجديد الذي لا علم لأهل الجاهلية به.

كما أن الأعشى ذكر من صفات ممدوحه ما يختص به الملك الفارسي الذي يعطي الضخام من الإبل وكؤوس الخمر والجواري الحسان وهذا مختلف عن أعطيات شيوخ القبائل العربية في الجاهلية والخلفاء في الإسلام.[١٠]

التخلُّص

لا يجد الأعشى صعوبة في التخلص من موضوعه الأول في الأطلال والديار إلى وصف المحبوبة والتغزل بها، إذ الضمير (هي) هو محور الأبيات في الموضوعين فلا يحس القارئ أنه انتقل إلى الغزل، إذ يقول:

إذ هي الهَمُّ والحديثُ وإذ تعـ ـصى إليّ الأمير ذا الأقوال
ظبية من ظباء وجرةَ أدما ءُ تَسَفُّ الكباث تحت الهدال

لكنه في تخلصه من الغزل إلى وصف الناقة يصرف ذكر الأول ليلتفت إلى الثاني بقوله:

فاذْهَبي ما إلَيكِ أدْرَكَني الحِلْـ ـمُ، عَداني عن ذِكْرِكُم أشغالي

وعَسيــرٍ أدمــاءَ حادرَةِ العَيْـ　　　ـنِ، حَتُــوفٍ عَيْرانَةٍ شِمــلالِ

أما تخلُّصه إلى موضوعه الرابع فيظهر براعته، إذ يعرض لتعب الناقة ثم يمنعها من الشكوى إليه ويدفعها إلى الأسود لأنه أهلٌ لذلك بقوله:

لا تشكيّ إليّ وانتجعي الأسـ　　　ـودَ أهل الندى وأهلَ الفعالِ

أما النابغة فقد تخلَّصَ إلى موضوعاتٍ أكثر لكنها لم تُعِق قريحته الشعرية؛ إذ تحركت الناقة في الرحلة وحركت الهوادج فكشفت عمّن فيها وفتحت له هذه الحركة البابَ إلى موضوعه الثاني في الغزل، إذ يقول:

زانَ السدولَ عليها الرَّقْمُ إذ حُديتْ　　　بكلِّ زوجٍ من الدّيباج محجوبِ

وفي الهوادج أبكارٌ مُنعّمةٌ　　　مثلُ الدُّمَى هجِنَ شوقًا في المحاريب

وفي الانتقال إلى الموضوع الثالث يوظف النابغةُ المفارقة، إذ لا يثمل من كل هذا الجمال الذي يصفه ولكنها الذكرى تثمل فيقول:

كأنني شاربٌ من ذكرهم ثَمِلٌ　　　لَذٌ يعل بخمر الطاس والكوب

لينتقل إلى وصف الخمر ومجلسه وإذ الساقية تصدُّ عن الشيوخ إلى الشباب فتخلصه من ذكر الخمر إلى الحكمة إذ:

يبلى الشبابُ وينفي الشيبُ بهجَتَهُ　　　والدهر ذو العوص يأتي بالأعاجيبِ

وهذه الحكم المطولة التي يسوقها تلهمه قوله:

وإن رحلت إلى ملك لتمدحه　　　فارحل بشعرٍ نقي غير مخشوبِ

ليصل إلى قولٍ مخصوصٍ في مديح يزيد بقوله:

وامدح يزيد ولا تظهر بمدحته　　　وقد أوائلهـا قودًا بتشبيبِ

يتابعه بعد ذلك بما سبق ذكره من مديح.

النهاية:

أنهى الأعشى قصيدته ببيتٍ يدعو فيه للممدوح العظيم صاحب الصفات المتميزة بالخلود بقوله:

لن تزالوا كذلكم ثم لازل　　　تَ لهم خالدًا خلود الجبالِ

وهو في هذا أبلغ في موطن المدح من خاتمة النابغة الذي قطع قصيدته بانتهاء توزيع الغنائم بعد مشهد الحرب بقوله:

غنمٌ يظلُّ إمام الناسِ يقسمها　　　فبين موهوبةٍ منها وموهوبِ

وإن كانت تدل على دوام النصر وهزيمة الأعداء.

اللغة

مستوى الجملة

إنّ للموضوع تأثيرًا في تشكيل البنية اللغوية للعمل الأدبي على نحو معين، إذ يستدعي استعمال كلمات ذات طابع خاص، ويقضي خلْق مجاوراتٍ ومحاورات بين الألفاظ [١١]، ولعل هذا ما تكشف عنه اختيارات كل من الأعشى والنابغة، إذ يقع اختيارهما على الجملة الفعلية لتؤدي معاني القصيدة، فيستخدم الأعشى اثنين وثمانين فعلاً تراوحت بين الماضي والمضارع، في حين استخدم النابغة عشرة ومئة فعل تراوحت أيضًا بين الماضي والمضارع، ووضعت القصيدة في جوٍّ من الحركة المستمرة زادت في قصيدة النابغة عنها عند الأعشى فأعطت انفعالاً أكبر.

التكرار

وظف الشاعران التكرار بشكل ملحوظ في مدحتيهما ففي حين كرر الأعشى سبعة عشر لفظًا تمثلت في:

سؤالي / حلَّ / ذا / ميل / ظبية / تعدو / ولا من / لا تشكي إلي / أهل / حبال / حي / هؤلى / ألف / قتال / خيلاً / رعال / حالة.

كرر النابغةُ خمسة وعشرين لفظًا تمثلت في:

حُديت / خضيب / قطاب / شباب / الدهر / يشد / طبي / تجربة / مطيع / رحل / امدح / قد / تنسبه / بحر / المخاصيب / مكة / الضاربون / الملوك / جرت / جريت / تحيي / أجود / سراحيب / شدت / موهوبة.

إنّ إعادة الألفاظ في سياق القصيدة خَلَق أنماطًا تكرارية على المستوى الدلالي نَمَت بالمعنى حتى أوصلته إلى الحد الذي حَسُنَ عند الشاعرين الوقوف عنده،[١٢] وإن كانت الأنماط التكرارية عند النابغة أكثر منها عند الأعشى.

الثنائيات اللغوية

لمّا كان من النادر أن تترجم واقعة ذهنية ما برمزٍ واحد[١٣] لم يكتفِ النابغة بتوظيف الجملة الفعلية والتكرار على مستوى اللغة في سياق مدحته، فلجأ إلى الثنائيات مستعملاً سبع عشرة ثنائية ضدية تمثلت في:

(خضيب / غير مخضوب)، (قطاب / غير مقطوب)، (العذاب / غير مشروب)، (داعٍ إلى رشد / غاوٍ)، (ذوي روح / مكروب)، (الشباب / الشيب)، (طبي ثر حالبه / طبي حذاء ذاوٍ)، (لا تحمدن / لا تذمن)، (الغلام / ذو الشيب)، (ملئت / تفرَّغ)، (فنيان / ذوي الشيب)، (بلوى / فرج)، (ذي مال / محروب)، (مطيع / لا يطيع)، (يُفَض / حُشد)، (يغصب / غير معضوب)، (موهوب / موهوبة).

كما استعمل سبعَ عشرة ثنائية تأكيدية على مستوى المعنى تمثلت في:

(صدعًا / غير مشعوب)، (لم ينظروك / سراعًا)، (ذوو زجل / تطريب)، (يبلى / يفنى)، (نقي / غير مخشوب)، (حقا / ليس بالحوب)، (المخاصيب / أبناء المخاصيب)، (سهل المباءة / يعفو)،(الضاربون / ضربًا)، (قد / قودًا)، (جرت / جري المحاضير)، (جريتَ / جري عتيق)، (تحيي / إحياء)، (أجود / جودًا)، (شُدّت / شدًا)

إن هذه الثنائيات تورث القصيدة توازيًا على مستوى العناصر يحتفظ بحركة دائمة وتواصل نفسي مع المتلقي عند النابغة، يحقق الأعشى شيئًا منه لكنه لا يصل إلى مستوى النابغة في ذلك، إذ يستعمل الأعشى ست ثنائيات ضدية تمثلت في:

(ريح الصبا / ريح الشمال)، (التأق / الأوشال)، (ادلاج / تهجير)، (قف / سبسب)، (حل / ارتحال)، (كثير / اقلال).

ولا نقع عنده على ثنائيات تأكيدية كما هي عليه عند النابغة.

الإيقاع

إنّ توازي العناصر اللغوية في الأنماط التكرارية والثنائيات اللغوية الضدية والتأكيدية تحدث توازنًا صوتيًا يشكل أساس الإيقاع [١٤]. والبنية الفعلية وما فيها من تراوح زمني ترفد الإيقاع بحركتها وفاعليتها.

لذا فإن في القصيدتين بنية إيقاعية زائدة على المستوى العروضي، معتدلة عند الأعشى، طاغية عند النابغة الذي يكثف من ثنائياته لتستمر قصيدته بنغم صاعد وإحساس يرتفع بالانتقال من موضوع لآخر، لعله يعكس أمل الشاعر في لقاء ممدوحه.

الخاتمة:

وبعد، فإن همة هذه الدراسة أن تكشف اختلاف المديح في العصر الأموي عنه في الجاهلي، من خلال قصيدتي الأعشى والنابغة. وقد وجهت كل منهما إلى ملك ذي شأن وتعددت موضوعاتها حتى وصلتا إلى أعتاب الممدوح.

والحق أن المديح ظل تعدادًا للصفات المثالية التي ينبغي أن يكون عليها الممدوح فهو كريم شجاع شريف النسب لا يطاول في الحرب، اجتمعت له أسباب السيادة عند كليهما.

غير أن خصوصية الملك الفارسي جعلت الأعشى يحدث بعطاياه المميزة، واختلاف الزمان والثقافة الجديدة بالإضافة إلى الصراع السياسي دفعت النابغة إلى ذكر بعض الصفات الدينية والتشديد على كرم النسب وأحقية الممدوح في المُلك.

وقد حشدَ كلٌ منهما لموضوعه من طرائق التعبير، وفنون القول ما انماز في بعضه وشابه صاحبه في بعضه الآخر، وقد تبين ذلك.

هوامش البحث:

---

١. وقد اختلف في سبب هذه التسمية انظر: إبراهيم عبد الرحمن، الشعر الجاهلي، مكتبة الشباب المنيرة – مصر، ٣٨٩ – ٣٨٠.
٢. انظر : ديوانه، شرح وتعليق: محمد محمد حسين، مكتبة الآداب، مصر، المقدمة
٣. انظر: مقدمة ديوانه، تحقيق: مهدي ناصر الدين، دار الكتب العلمية ، بيروت.
٤. انظر: مقدمة ديوانه، تحقيق محمد محمد حسين.
٥. انظر: مقدمة ديوانه، مطبعة دار الكتب المصرية.
٦. انظر: نزيه أحمد طه، شعر شيبان في الجاهلية والإسلام. ر.ج، ٢٤٢– ٢٥٨.
٧. انظر: مقدمة ديوانه، تحقيق: قدري مايو
٨. انظر: الأعلم الشنمتري، أشعار الشعراء الستة الجاهليين، ص ١٩٤.
٩. انظر في مناسبة المقدمة الطللية لموضوع القصيدة : حسين عطوان، مقالات في الشعر ونقده، ط ١، دار الجيل، لبنان، ١٩٨٧– ص ١٢–١٣
١٠. انظر : عمر شرف الدين، الشعر في ظل المناذرة والعساسفة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧، ص ٤٣ – ٤٤.
١١. انظر: عدنان حسين قاسم، الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي، مؤسسة علوم القرآن بعجمان ودار ابن كثير بدمشق، ط ١، ١٩٩٢، ص ١٥٨.
١٢. انظر : محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون، ط ١، ١٩٩٤، ص ٣٠٠.

١٣. انظر: شارلي بالي، علم الأسلوب وعلم اللغة العام، في شكري عياد اتجاهات البحث الأسلوبي، دار العلوم، ١٩٨٥، ص٢٥.

١٤. انظر: عدنان قاسم، الاتجاه الأسلوبي البنيوي، ص ٩٠.

المصادر والمراجع

- د. إبراهيم عبد الرحمن، الشعر الجاهلي، مكتبة الشباب، المنيرة – مصر.
- الأعشى، الديوان، تحقيق: محمد محمد حسين، مكتبة الآداب، مصر
- – الأعشى، الديوان، تحقيق: مهدي ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الأعلم الشنتمري، أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، د. معلومات.
- د. حسين عطوان، مقالات في الشعر ونقده، دار الجبل – لبنان
- شارلي بالي، علم الأسلوب وعلم اللغة العام في: شكري عياد: اتجاهات البحث الأسلوبي، دار العلوم – مصر.
- د. عدنان حسين قاسم، الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي، مؤسسة علوم القرآن بعجمان ودار ابن كثير بدمشق.
- د. عمر شرف الدين، الشعر في ظل المناذرة والغساسنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر.
- د. محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون – لبنان.
- النابغة الشيباني، الديوان، مطبعة دار الكتب المصرية – مصر.
- نزيه أحمد طه، شعر شيبان في الجاهلية والإسلام، ر.ج.